عنوان المحاضرة : الأنثروبولوجيا الثقافية

أولا: مفهومها

تعرّف الأنثروبولوجيا الثقافية -بوجه عام – بأنّها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع لـه ثقافة معيّنة. وعلى هذا الإنسان أن يمارس سلوكاً يتوافق مع سلوك الأفراد في المجتمع (الجماعة) المحيط به، يتحلّى بقيمه وعاداته ويدين بنظامه ويتحدّث بلغة قومه .‏ يقول رالف لنتون: "الانسان له شكله الفيزيقي وتراثه الاجتماعي وسماته الثقافية".

ولذلك، فإنّ الأنثروبولوجيا الثقافية :هي ذلك العلم الذي يهتمّ بدراسة الثقافة الإنسانية، ويعنى بدراسة أساليب حياة الإنسان وسلوكاته النابعة من ثقافته. وهي تدرس الشعوب القديمة، كما تدرس الشعوب المعاصرة.

فالأنثروبولوجيا الثقافية إذن، تهدف إلى فهم الظاهرة الثقافية وتحديد عناصرها. كما تهدف إلى دراسة عمليات التغيير الثقافي والتمازج الثقافي، وتحديد الخصائص المتشابهة بين الثقافات، وتفسّر بالتالي المراحل التطوّرية لثقافة معيّنة في مجتمع معيّن .‏

ولهذا استطاع علماء الأنثروبولوجيا الثقافية أن ينجحوا في دراساتهم التي أجروها على حياة الإنسان، سواء ما اعتمد منها على التراث المكتوب للإنسان القديم وتحليل آثارها، أو ما كان منها يتعلّق بالإنسان المعاصر ضمن إطاره الاجتماعي المعاش .‏

تهتمّ الأنثروبولوجيا الثقافية بالتراث والحياة داخل نطاق المجتمع، ويمكن بوساطتها الخوض في جوهر الثقافات المختلفة، ومعرفة كيف تحيا الأمم، من خلال الإجابة عن التساؤلات التالية :‏

ما هي سبل العيش المتّبع لديهم؟ ما هي الطرائق التي يتبعونها في تربية أبنائهم ؟ كيف يعبّرون عن أنفسهم؟ ما هي طريقتهم في أداء عباداتهم؟ وغير ذلك من العادات والقيم وأساليب التعامل فيما بينهم.

ثانيا مفهوم الثقافة:

يُعتبَرُ مفهوم الثقافة من بين المفاهيم المثيرة للجدل والاختلاف وذلك يبدو جليا بين الأكاديميين والمفكرين على حد سواء؛ فقد استخدمت تخصصات الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلوم الدراسات الإنسانية مجموعة كبيرة من التعريفات، ويُرجِع البعض تطور كثير من التعريفات إلى كونها لا تتميز بالوضوح بين المفهوم من ناحية؛ والأشياء التي يشير إليها من ناحية أخرى، لكن أغلب التعريفات العلمية تشير إلى التعليم والاكتساب كوسيلة لتناقل الثقافة واعتبار الثقافة هي طرائق وأساليب الاستجابة للتحديات التي يواجهها الإنسان في تفاعله مع الطبيعة، ويمكن فهم خصوصية الثقافة باعتبارها تمثل نظام القيم الأساسي للمجتمع.

جاء في لسان العرب : ثَقَفَ الشيء ثقفًا و ثِقافًا وثَقُوفَةً: حذقه، ورجل ثَقَفٌ وثِقِفٌ: حاذق الفهم ولم يرد فيه لفظ مثقف، أما لفظ " الثقافة " فقد ورد كمصدر بمعناه الحذق: «وثَقَف الرجل ثقافةً؛ أي صار حاذقا خفيفا».

يُعَد مفهوم الثقافة من أكثر المفاهيم تداولا وشيوعا ومن أكثرها غموضا وتعقيدا، وهو المفهوم الذي تساقطت أمامه جهود الباحثين الذين حاولوا تعريفه وتحديد ملامحه. ولقد وقّع "كلكهون" على مئة وستين 160 تعريفا للثقافة وذلك منذ خمسة وعشرين سنة، ولعل من أقدم التعريفات للثقافة وأكثرها ذيوعا حتى الآن لقيمته التاريخية تعريف "**ادوارد تايلور"** الذي قدّمه في أواخر القرن الـ 19 في كتابه " الثقافة البدائية" عام 1871 الذي تُرجِم إلى الفرنسية سنة 1876 بأن: « الثقافة والحضارة هي ذلك الكُل المركب الذي يشمل المعرفة، المعتقدات، الفن، الأخلاق، القانون، العادات وكل القدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع ».

يُعتبَر هذا التعريف أقرب إلى الوصف؛ إذ نقَل الثقافة إلى المستوى الاجتماعي ووقائعه التي يمكن ملاحظتها مباشرة في فترة زمنية محددة.

أبرَزَ تعريف "إدوارد تايلور" العناصر اللامادية للثقافة التي تنتُج نتيجة التفاعل المجتمعي بين الأفراد، إضافة إلى كل العناصر التي يكتسبها المجتمع من خلال العلاقات الاجتماعية وذلك بفعل عملية الاتصال ومن ثمة اكتساب العناصر المادية المكونة للثقافة إجمالا.

فبالرغم من القيمة المعرفية لتعريف "تايلور" فهو يصطبغ بطبيعة أنثروبولوجية تُفسر المجتمع وموروثاته المختلفة بناءًا على المكونات المادية واللامادية للثقافة.

بالإضافة إلى ذلك، فهناك تقارب كبيرا جدا بين الثقافة والحضارة، من ناحية التركيبة المتنوعة فهي شملت كل ماله علاقة بالمجتمع والإطار المجتمعي للفرد. كما أوضح "تايلور" شمولية الثقافة على القدرات التي يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع؛ الأمر الذي يجعل أهم عامل في هذا الاكتساب هو القدرة على التعلم من الجماعة. لكن، الجماعة والأفراد في كثير من الأحيان يخلطون بين مفهوم الثقافة الحقيقي والمفاهيم الأخرى، فهم يعتبرونها كل ماله علاقة بالرقص والفن والموسيقى، متناسين بأن الثقافة في مدلولاتها الحقيقية هي بطاقة تمثل طبيعة المجتمع ومستواه الحضاري والثقافي.

وهذا ما أوضحه "مصطفى بوتفنوشت" في كتابه "الثقافة في الجزائر" بقوله: «يبقى مفهوم الثقافة شاسعا وأكثر عمقا ...أنا اعتقد بأن الثقافة هي وقود فكر لأية أمة ...البلاد ليست إلا مجموعة من الأفراد المجردين من الفكر والذين شكلوا أمة».

كما عرّف **"ميشان مان" "M.Mann"** الثقافة على أنها «تشتمل على الأفكار، الممارسات، الأدوات، الرموز، الفنون وكافة أنواع الإنتاجات البشرية ....والتي تختلف في ذلك تِبعا لاختلاف الزمان والمكان، فهو يُبرِز العناصر اللامادية لحياة الناس في الجماعة؛ كالأخلاق، القانون، العرف والتي تنشأ نتيجة التفاعل الاجتماعي وتأخذ طابعا إلزاميا إلى جانب العنصر المادي للثقافة، علاوة على العلاقات بين الناس وبين العناصر المكونة للثقافة»

ويرى "**رالف لينتون" "R. Linton"** أن الثقافة كل متناسِق من السلوك المتعلَم ونتائج هذا السلوك، وأن العناصر المكوِنة لهذا الكُل تكون مشتركة بين أفراد المجتمع الواحد وتنتقل بواسطتهم من جيل إلى جيل آخر، ويتضمن السلوك المتعلم هنا كل ما يقوم به الفرد من أفعال سواء أكانت ظاهرة أو غير ظاهرة عضوية كانت سلوك.

ويعرّف "**دورثي لي" Dorothy Lee""** الثقافة بأنها «نسق من الرموز، بواسطته يعطي الأفراد معنى لكل ما هو موجود حولهم؛ فالسلوك الإنساني كما تُحدده الثقافة نسق يربط الفرد بعالمه سواء أكان ذلك العالم هو المجتمع (Society)، أو الطبيعة (Nature)، أو الكون (Universe) المتعارف عليه أو الحقيقة المطلقة (Ultimate Reality)، فسلوك الفرد في أي موقف اجتماعي ما هو إلا تعبير عن هذه العلاقة؛ فالإطار الثقافي لأي مجتمع يُشكِّل تصرفات أفراده، معارفهم، تفكيرهم، وتفسيرهم لكل ما يدور حولهم، وبذلك تضع الثقافة القوانين المنطقية والمبادئ الفكرية والحدود الثابتة فتُقدم لأفرادها الدليل الذي يُرشدهم في تفسير كل ما هو موجود في مجتمعهم، فيوجههم إلى طرق وأساليب العمل التي تُمكِّنهم من القيام بدورهم في المجتمع في حدود إمكانياتهم"

ويشير هذا التعريف إلى العلاقة بين اللغة والمجتمع والثقافة؛ فهي علاقة وثيقة باعتبار اللغة هي وعاء الفكر وأداة للتعبير، وقد ثبت أن اللغة تتأثر أيما تأثُر بحضارة الأمة، نظُمها، تقاليدها، عقائدها، واتجاهاتها العقلية ودرجة ثقافتها ونظرتها إلى الحياة وشؤونها الاجتماعية العامة وما إلى ذلك، فكل تطور يحدث في ناحية من هذه النواحي يتردد صداه في أداة التعبير